الاسلام ومشاكل القرن العشرين

للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

انعقد في قرطبة بين 21 و 27 مارس 1977 المؤتمر الاسلامي المسيحي العالمي الثاني امتدادا للمؤتمر الاول الذي انعقد منذ سنتين بنفس المدينة ، وكان موضوع هذا اللقاء هو شخصية سيدنا محمد وشخصية سيدنا عيسى عليهما السلام .

وفيما يلي موجز تدخل الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله

قال الفيلسوف برناردشو : «لو كان محمد حيا اليوم لحل مشاكل عصرنا وهو يشرب فنجان قهوة .»

نعم ان رسول الاسلام قد خرق بفكره الثاقب المعزز بالوحي غياهب الحضارات ، وحرر ابعاد الفكر البشري ليستشف في بساطة ممتنعة الحلول المثلى لمشاكل الانسانية في مختلف الاعصار والامصار .

لقد شملت نظراته الكاشفة شتى تطورات الانسان في معالجات فكرية واقتصادية واجتماعية يندهش الفكر العلمي الناقد اليوم لمدى انطباقها على معطيات ابعاده المتجددة ، وتحديات هذا الانبعاث .

وسوف نستعرض نماذج من هذه البادرات انطلاقا من نصوص الاحاديث الصحيحة التي أوصلها الامام احمد بن حنبل الى المليون اى الف الف بلغة ذلك العصر ، ولكن نقد رواة الحديث لم يحتفظ منها باكثر من خمسة آلاف هي قصارى ما ورد في الصحاح كالموطأ والبخاري ومسلم وبعض السنن والمسانيد ، فاذا رجعنا الى الاصول المنتقاة متتبعين سلسلة الاسانيد التي تعتبر احد مفاخر الفكر العلمي الاسلامي ـ لما انطوت عليه من تدقيقات وتحريات ـ امكننا ان نستخلص في وضوح جملة من الافكار الاسلامية التي دعم بها سيدنا محمد عليه السلام هيكل الاسلام في مقوماته الجوهرية ولن يكون بحثنا ـ نظرا لضيق المقام ـ مستقصيا ولا مستوفيا ، ولكن انتقائيا ، نستكمل جوانب النقص فيه بالاجابة عما يعن لحضراتكم من أسئلة استيضاحية .

فلنبدأ بالجانب الاجتماعي في آراء ونظريات الرسول عليه السلام ، فقد بلغت الاحاديث ذات الطابع الاجتماعي حسب احصاء قمت به شخصيا نحو اربعة اخماس المجموع وضعت كلها حلولا رصينة لقضايا المجتمع .

ويشكل هذا المجموع ما يمكن ان نسميه تجوزا ينجذب اليها كثير من شبابنا ومن هذه الايديولوجيات مذهب الماركسية الذي تواجهه في الاسلام فكرة العدالة الاجتماعية والتعادلية الاقتصادية ، فاذا اعتبرنا ان الماركسية ترتكز على ثلاث دعامات اساسية هي الحد الحيوي الادنى والتسوية الطبقية ، واعتبار العمل بمثابة رأس المال الحقيقي طبقا لمبدأ Capital-travail (العمل رأس المال) لكارل ماركس ، وجدنا الفكرة الاسلامية ملخصة في ثلاثة احاديث شريفة هي قوله عليه السلام :

1) ان فى المال لحقا سوى الزكاة (وهذا منطلق مشروع لتحقيق نوع من التسوية بين طبقات الامة) ·

2) انا خصيم من لم يؤد اجرة الاجير قبل أن يجف عرقه ·

3) من اكل اجرة الاجير حبط عمله ستين عاما ·

وقد افرد ابن خلدون فى مقدمته فصلا عنوانه « الكسب راس المال » حلل فيه هذه الفكرة قبل الزعيم الشيوعى كارل ماركس بعدة قرون ، وقد القيت محاضرة فى الموضوع فى قلب موسكو بدعوة من اكاديمية العلوم ·

ان احاديث الحسبة فى الاسلام — وهى تستهدف القضايا الاجتماعية والاقتصادية — تشكل دستورا للمدينة الفاضلة التى يتحقق فيها التوازن هو سر الجمال والكمال فى الحياة ، فالانسان الفاضل حقا هو الذى لروحه عدل ما يمنحه لجسمه وقد قال العالم باستور Pasteur «ان من قضى ساعتين فى كل يوم يجب أن لا يعتقد انه اضاع وقته وانما اعطى لروحه بعض حقها » ، وقد غضب الرسول عليه السلام عندما راى اقواما يتنزهون عما يفعله فقال معرضا باولئك «انى اصوم وافطر واقوم وانام واتزوج ومن رغب عن سنتى فليس منى» ·

وسئلت عائشة عما كان يفعله الرسول فى بيته فقالت فى جواب انسانى رائع : «لقد كان بشرا كالبشر» وهذا هو سر عبقرية الرسول لانه عرف كيف يوفق بين جوانب الحياة وقد اعتبر عليه السلام مصلحة المجتمع انعليا وهى أساس الفكر الاسلامى ، ومن ذلك اعتبر الامام مالك مبدأ «المصالح المرسلة» وتحكيم العادات كما اعتبر الرسول أن الحرية الحق هى التى لا تسطو فيها حرية على حرية وان ضابط السمو الروحى كامن فى عدم المساس بحقوق الغير وكرامة الغير ، وان المومن الحق لا يكذب الا فى اصلاح ذات البين ، وان من محبطات اعمال المومن اغتياب أخيه الانسان وقذف المراة المحصنة وقد دخلت يهودية تصيرة القد على الرسول وعنده زوجته عائشة فتبسمت هذه استخفافا فغضب عليه السلام وقال : «يا عائشة لقد نطقت بكلمة لو مزجت بماء البحر لما زجته !» ·

وقد خول رسول الاسلام المراة نصف ميراث الرجل معترفا لها بحق الاحتفاظ بمالها ومشاركة زوجها فى ماله بحكم النفقة المحتمة فكانت هى الرابحة ، كما حذر الرسول من الطلاق المشروع بقوله : «ابغض الحلال الى الله الطلاق » ملاحظا مع ذلك أن فصم عرى الزوجية ليس بالامر الهين وان «لا طلاق فى اغلاق» وكانه حل بهذه المرونة ما يواجه الانسانية اليوم من مضايقات ! وقد فضل الرسول تعدد الزوجات مع التشديد فى لزوم العدل «ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وهنا نوه كل من ويستر مارك Westermack الخبير الاوروبى فى شؤون الزواج والزعيم الاشتراكى ليوم بلوم Blum بالتشريع الاسلامى حيث فضلا هذا النظام على عادة اتخاذ الخليلات التى تفوض الاسرة الاوروبية ، على أن نظام الاقتصاد القبلى فى عصر الرسول عليه السلام كان يتطلب هذا التعدد الذى خفضه عليه السلام الى اربع نسوة بدل عشرة فازيد وقد اصدرت مصر بعد ثورة 1952 مرسوما اباحت فيه تعدد الزوجات فى الريف لاسباب اقتصادية ومن جهة اخرى وجد الرسول مجتمع عصره غارقا فى خضم الاسترقاق فوضع جملة من الكفارات ، لتشجيع العتق جاعلا حدا نهائيا للاستعباد خارج الجهاد المشروع وقد شرح ذلك سيدنا عمر بن الخطاب حيث قال مستنكرا : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ! » .

وقد وضع الرسول خطة رصينة للتخطيط العائلى تتلخص فى الحرية الواعية فاباح العزل مع الدعوة الى الانجاب فى حدود المسؤولية ، وكان عليه السلام يخاطب مائة الف صحابى فقط وهو عدد المسلمين فى عصره ، عندما قال «تكاثروا تناسلوا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة» ·

ومما يتصل ايضا بالمقوم الاقتصادى والاجتماعى فى الامة ضمان مستوى ثقافى تنمحى معه الامية تدريجيا ، وقد دلت الاحصاءات فى المغرب مثلا حسبما ورد فى كتاب « المغرب المجهول » لموليراس الذى صدر عام 1895 على ان قبائل باكملها فى شمال المغرب الاقصى كانت تعرف القراءة والكتابة لان المومن كان يشعر بان ايمانه لن يكتمل حتى يكون قادرا على قراءة القرآن · اما قول الرسول عليه السلام : «انا امة امية لانكتب ولا نحسب» فانه استهدف بذلك ضرورة الانطلاق من القاعدة مؤثرا اياها على هرم المجتمع فى مستواه العالى ! وقد وضع عليه السلام ضابط المحجر الصحى

عندما قال : «اذا كان الطاعون فى بلد فلا تدخلوه واذا كنتم فيه فلا تخرجوا منه» كما اصدر سلسلة من التشريعات التى تضع الحل المناسب لجملة من مشاكل الصحارى والبوادى التى انطلق منها الاسلام فقال عليه السلام « اذا وقع الذباب فى اناء احدكم فليغمسه فان فى احد جناحيه داء وفى الآخر دواء » وقد قام مؤتمر طبى انعقد بلندن عام 1930 بتحليل الجناحين فوجد فى احدهما عناصر كيماوية تعقم العناصر الموجودة فى الجناح الآخر ، وقد نشرت مجلة « التقوى » المصرية تقرير هيئة الاطباء فى ابانه ، كما اكد عليه السلام ضمن اربعمائة حديث طبى وردت فى رسالة خاصة للسيوطى قوله : « اذا ولغ الكلب فى اناء احدكم فليغسله سبعا ، احداهن بالتراب» . وفى ذلك اشارة الى ان جرثومة داء الكلب لا تستأصل الا بالتربة المسماة humus والتى هى احد عناصر البنسلين pénicilline وكان عليه السلام يداوى الجراحات بالريق ، وكشف الطب الحديث ان ريق الانسان يحوى من الفيتامين نحو مائة ضعف ما يوجد فى غيره .

وكان الرسول عليه السلام سباقا الى المرونة فى الدين فلم يستنكف عن مساندة بعض ما يندرج اليوم تحت شارة الدرجة او الموضة حيث دعا الى الرفق بالمراة «رفقا بالقوارير» وسمح لعائشة وام سلمة — كما فى صحيح مسلم — بحشى ثلاث حثيات على ضفيرتيهما فى الوضوء الاكبر دون فكهما مستجيبا بذلك الى رغبة عارمة عند المراة العصرية التى تريد الحفاظ على دينها دون أن تحرم نفسها من تزيينات الحلاقة الحديثة ، وقد جعل الرسول من المراة ربة البيت والاميرة على شؤونه . ولولا عاطفتها ورقة شعورها لاسند اليها الحكم فى منصة القضاء ، وقد احاطها عليه السلام بعطفه ودللها بما لم تحلم المراة المعاصرة بالتمتع به حيث اناط بها اختيار شريك حياتها حقها المالى كاملا ، فى حين أن المراة الغربية ما زالت ترزح فى القرن العشرين تحت ثقل نظام الشركة الزوجية

régime de la communauté matrimoniale

الذى يخول للزوج السيطرة المطلقة على مال زوجته وقد سمح القانون الفرنسى مؤخرا فى عهد الجنرال دوكول G. De Gaule بقسط يسير جدا من هذه الحقوق التى متع الرسول بها المراة المسلمة منذ اربعة عشر قرنا وقد صنفت فى ذلك كتابا باللغة الفرنسية عنوانه : « اضواء على الاسلام او الاسلام فى ينابيعه » حيث استقيت بعض مظاهر الفكر الاسلامى الصحيح من النصوص الصحيحة لاحاديث الرسول .

وهكذا اصدر سيدنا محمد عليه السلام فى سننه من مبدا اليسر حيث قال « ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الاّ غَلَبَهُ » وقال : « ان هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق » .

كما اصدر عليه السلام فى قوله وفعله كله عن مبدا الحب والرحمة والانسانية الشاملة فقال : « انما انا رحمة مهداة ، وخاطبه الحق فى قوله : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين» فدعا الى الوحدة الحق بين اهل التوحيد واعتبر المجوس الزردشتيين اهل الكتاب لتوحيدهم وروى ابو هريرة قوله عليه السلام : «بشر من قال لاله الا الله بدخول الجنة» فلم يشترط عليه السلام فى الزلفى من الحق سوى توحيده وقد تعزز هذا الحديث بحديث آخر عن ابى هريرة ايضا : «احق الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قبله او نفسه » ، وقد دعا الرسول الى حماية الحيوان جميعه قائلا : « فى كل كبد رطبة صدقة » وبذلك اصبح المجتمع الاسلامى الصالح غير محتاج الى «جمعيات الرفق بالحيوان»

ولا نقصد فى حديثنا هذا الا الآراء المستخلصة من احاديث الرسول عليه السلام حيث ضربنا صفحا عما ورد فى القرآن من آيات سبقت الكشوف العلمية بازيد من عشرة قرون وقد اصدرت مطابع (سيغرس) Seghers بباريس عام 1976 كتابا لموريس بوكاى Maurice Bucaille بعنوان : « التوراة والقرآن والعلم » اكد فيه انه لم يرد قط فى القرآن ما يخالف العلم ويتفاق مع معطياته .

وقد عزز الرسول التعادلية الاقتصادية بنظام الزكاة الذى يقتطع من الغنى نصف عشر ماله لفائدة الفقير دون ان يؤدي الامر بهذا الفقير الى تكاسل عن الكسب لان الكسب عبادة ولان الكد على العيال من اكد القربات وقد قال عليه السلام : « لان يحتطب احدكم حزمة على ظهره خير من ان يسال احدا اعطاه او منعه» وقال : «اليد العليا (اى المعطية) خير من اليد السفلى (اى الآخذة) واعتبر الرسول من الاصناف الثمانية الذين لهم حق التمتع بالزكاة الفقير الذى له قوت سنة كاملة لان الرسول اراد ان يوفر للمواطن كل مقومات الحياة الوديمة الرغيدة بالاضافة الى القوت اليومى حتى يمكنه من اللباس الطيب ومن تربية ابنائه والسهر على صحتهم والحفاظ على كرامة الاسرة كنواة

طيبة للمجتمع الفاضل ذلك المجتمع السذى لا يكفى فى استكمال توازنه مجرد القيام بشعائر الدين من صلاة وصيام بل ان هذه الشعائر لن تؤتى اكلها حقا الا اذا قرنت بالتعاطف والتعاضد وتبادل الاحترام لحقوق المواطن ، ولذلك اعتبر الرسول من محبطات الاعمال كل ما أخل بكرامة المواطن فضلا عن المساس بحق من حقوقه ، وقد دعا الرسول عليه السلام الى ما فى الآية الشريفة : «ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» جاعلا من المستثنيات عدم قبول التوبة مالم يتم رد المظالم الى اصحابها اذ فى ذلك وحدة كفالة توازن المجتمع .

على ان تشريع محمد هو أصل مدونة نابليون التى ما زالت قاعدة التقنين والتنظيم بفرنسا ومن سبح فى فلكها ، وقد انعقد مؤتمر دولى للقانون عام 1951 أجمع عنى الاعتراف بأن الفقه الاسلامى هو فقه عالمى يصلح لان يكون تشريعا للانسانية جمعاء بما حواه من عناصر استكملت مختلف اوجه النظر فى المجالات الحضارية والاقتصادية والمعاملات .

تلك هى بعض مقومات المدينة الفاضلة كما ارادها رسول الاسلام ، ومن أروع المبادىء التى اقامها الرسول لحل جميع مشاكل هذا الكون فكرة النسبية relativité التى تميز بين العالمين : عالم الملك ، وعالم الملكوت ، وهما ما نسميه اليوم بعالم المحسوسات ، أو المنظورات وعالم ما وراء الطبيعة ، أو ما وراء المادة ، معتبرا كل ما يتصل بالانسان نسبيا ، وكل ما يتصل بالله مطلقا ، ولم يقع المعتزلة فى شرك تعطيل الصفات الالهية ، الا بحيادهم عن هذه القاعدة المثلى ، اذ بمبدأ النسبة نفهم قول الله تعالى : «وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون» وقوله : «فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة» نظرا لاختلاف المقاسات والابعاد بين أطراف العالمين . وقد حمل رجل الفضاء فى سفينته القطة الصغيرة فعاد بها الى البسيطة وهى اكبر سنا من أمها التى بقيت على الارض ، وقد خبط بعض العلماء والفلاسفة منذ عهد ارسطو فى علله الاربع المعروفة فى خصوص الدلالة على وجود الله وشك الفيلسوف الالمانى كانط فى كثير من مدارك العقل غير الخالص Raison pure

ولكن محمدا عليه السلام جاء بدليل بسيط عززه القرآن بقوله : «الله نور السماوات والارض» فكانه أراد أن يقنعنا بانه اذا كان العلم الحديث قد عجز عن استكناه ماهيه نور الكهرباء مثلا وهو طاقة محسوسة فكيف بنور يخرج عن حيز هذا الكون ، ذلك ان نور نجاح الانسان فى هذا العالم الرياضى الذى يعيش فيه هو أن يعرف قدره ولا يتجاوز حده ، والى ذلك دعا رسول الاسلام وقد كانت عاصمة برلين تصدر قبل الحرب العالمية الثانية عشرات المجلات حول الروح ، كانت كلها تخبط خبط عشواء لان الروح ليست من أمر هذا الكون بل هى من أمر الله ، وقد اختبر اليهود مدى صدق رسالة سيدنا محمد عليه السلام بسؤاله عن ماهية الروح ، فأجاب طبقا للآية الشريفة : « قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

وقد حلل الرسول عليه السلام الكثير من المشاكل الفكرية التى تخبط فيها رجال الفكر منذ أعرق العصور وما زالوا يحاولون الكشف عن أسرارها وقد وهم بعض الفلاسفة حتى المسلمين ممن تأثر بالمدرسة الاغريقية عند ما وسعوا دائرة العقل اكثر من اللازم ، فزعم ابن طفيل الاندلسى المغربى فى رسالة «حى بن يقظان» وابن سينا المشرقى فى « رسالة الطير ودوفسوى Defoe الاوربى فى قصة روبنسن كروزوى Robinson Crusoé ان الطفل الذى تربى فريدا وحيدا فى الغابة دون ملامسة البشر يمكنه بمجرد التفكير أن يحقق وجود الله ، ولكنهم لم يدركوا ما ادركه الغزالى انطلاقا من احاديث الرسول أن النفس والروح والقلب والعقل مدارك لطيفة ربانية واحدة من جملة ادواتها الالهام Inspiration الذى به خططت النحلة منهج حياتها وهيكل خليتها بصورة غير قابلة للخطأ infaillible كما يقول علماء الاحياء وهو مصداق قول الله تعالى : «وأوحى ربك الى النحل» وهذا الالهام هو الذى يتبلور عند المرأة فى صورة حدس intuition أى حس سادس أشار اليه الحديث المرسل او الموقوف بقوله «اللهم ايمانا كايمان العجائز» وهو ايضا منطلق علم اليوكا Yoga اليوم ذلك العلم الذى احصيت شخصيا بين وضعاته التجريبية التى اصبحت بمناط جاذبية الشباب ــ نيفا وعشرين حركة ووضعة فى الوضوء والصلاة وحدهما ولا أريد أن أطيل فى هذا الباب مخافة أن تنزلق الى متاهات بعض المتصوفة التى جعل الرسول عليه السلام حدا مشروعا لابعادها عندما قال «أمرنا أن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر» فضرب عليه السلام أروع المثل لوجوب الالتصاق بالارض دون العروج الى الاجواء المتناهية حتى نظل منطقيين واقعيين فى شؤون هذه الدنيا وفى علاقاتنا مع بنى الانسان .

تلك مذلكة مقتضبة جدا لم نستهدف من خلالها سوى لمسات عابرة لحقائق لا يمكن استيفاؤها فى عرض موجز غير اننى افسح المجال لزملائى المؤتمرين وخاصة اخوانى المسيحيين لا لقاء ما يعرض لهم من أسئلة نستكمل بالاجابة عنها مالم نتمكن من تفصيل القول فيه.